د.مظهر محمد صالح * : لمحات في التاريخ الاقتصادي لروسيا القيصرية.

١-تمهيد

تميزت فترة حكم بطرس الأعظم Peter the Great الذي حكم روسيا بين الاعوام ١٦٨٢-١٧٢٥ بحدوث تغيرات جذرية في روسيا. فقد كان بطرس الأكبر منذ طفولته مولعا بالقضايا العسكرية، حيث سعى الى تشكيل جيش وبناء أسطول بحري على غرار الأساطيل الأوروبية. كما أنه عمل تدريجيا على إجراء اصلاحات في إدارة الدولة حسب النموذج الأوروبي وغرس عاداتِ وتقاليدَ الطبقات الاجتماعية الأوروبية الراقية في المجتمع الروسي. وقد أدت الانتصارات المحققة على القوات التركية والسويدية، الى توسع حدود الدولة الروسية وتوطيد مواقع روسيا في المحافل الدولية. كما أبعد البطريركية واخضعها لسلطة الدولة المركزية. وبعد انتصاره على القوات السويدية أعلن عن قيام الإمبراطورية الروسية. بنى بطرس الأكبر مدينة سانت – بطرسبورغ التي أصبحت عاصمة روسيا الجديدة. روسيا – امبراطورية بدأت بعد سلطة بطرس الأكبر القوية، مرحلة جديدة عرفت بمرحلة انقلابات القصر. وبنتيجة أحد هذه الانقلابات الذي دبرته ضد زوجها، اعتلت العرش الإمبراطورة يكاترينا الثانية، ذات الأصل الالماني، والتي امتد حكمها من عام ١٧٦٢ ولغاية ١٧٩٦. وخلال هذه الفترة استمرت يكاترينا في تثبيت مركزية السلطة في روسيا. وبنتيجة انقلاب حدث عام ١٨٠١ اعتلى العرش حفيد يكاترينا الثانية الكسندر الأول، الذي تميز حكمه بالليبرالية، حيث اتخذ أولى الخطوات لتحرير الفلاحين ودرس مشروع تأسيس برلمان في روسيا (مجلس الدوما).

٢- ليونهارت اويلر Leonhard Euler والامبراطورية الروسية.

ا-سألني سائل مالذي تعلمته من اويلر شخصياً ايها الاقتصادي العراقي؟ فأجبته ان اويلر الذي اسس التحليل الرياضي وعلم التفاضل والتكامل، اصبح محوراً اساسيا في تشكيل علم الاقتصاد الرياضي. فتحليله للدوال المتجانسة من الدرجة (ن) واستخدامنا لدوال الانتاج

مكنت علماء الاقتصاد من بلوغ نظرياتهم الحديثة في التوزيع الامثل وكيفية تحديد عوائد العمل وعوائد رأس المال في نطاق النظرية الحديثة في التوزيع. عد اويلر أحد عباقرة عصر التنوير الذي اضفى اثباتاً علميا لما توصل اليه اسحاق نيوتن في حركة القمر وجاذبيته والظواهر الكونية الاخرى من دقة في التنبؤ والتقدير.

ب - وهكذا لم يتعد عمره التاسعة عشرة ربيعا يوم غادر عالم الرياضيات ليونهارت اويلر موطنه سويسرا و مسقط رأسه بازل التي ولد فيها في العام ١٧٠٧ ليواصل رحلته ملتحقاً بوظيفته في الاكاديمية الروسية للعلوم في سانت بطرسبيرغ. يوم جاء تعيينه بناءً على رغبة امبراطور روسيا (بطرس الاعظم) وهو زعيم روسيا الذي شغلت باله مسؤولية إرساء خطة تحديث بلاده والبحث عن الطاقات المبدعة التي اتاحت للعالم اويلر دورا مركزياً في الممارسات التطبيقية للتحديث. فتولى اويلر بنفسه رسم المخططات والخرائط الدقيقة للإمبراطورية الروسية فضلا عن كيفية صناعة السفن والتصدي للمشكلات والكوارث الطبيعية كالفيضانات والحرائق وغيرهما. وعلى الرغم من ذلك لم يتخل اويلر عن مواصلة اهتماماته في التحليل الرياضي ولاسيما في مجالات التحليل العددي والسلاسل الرياضية اللانهائية وتشكيل الارض. اذ بدأ اويلر فتحه العلمي في العام ١٧٣٠ عندما اكتشف حلا لما كان يسمى بـ (بمسألة بازل) وهي كيفية ايجاد مجموع للسلسلة الرقمية اللانهائية التي تبدأ من الرقم 1 مضافاً اليه: ربع الواحد ثم تسع الواحد ثم ستة عشر الواحد .وهلم جرى. وجاء الحل الذي قدمه بعد قرن من الزمن لم يستطع العلماء وقت ذاك فتح لغزه. تزوج اويلر في سان بطرسيبرغ من امرأة روسية انجبت له ثلاثة عشر طفلا قضى خمسة منهم نحبهم وهم في عمر الطفولة. ثم فقد بصره تدريجيا وهو بعمر ٣٠ عاماً حتى صار اعمى تماماً وهو بعمر ٦٠ عاماً، ولكنه لم يفقد بصيرته التي ازدادت بريقا ولمعاناً. انتهى اويلر في العام ١٧٤٠ في برلين ، يوم استقدمه امبراطور بروسيا فريدريك الاعظم لأقامة الاكاديمية الملكية البروسية (الالمانية) التي ضمت كبار العلماء في مجالات الفلسفة والعلوم الصرفة. وبسبب المراسلات التي جرت بين اويلر و فولتير (فيلسوف فرنسا في المعتقد الحر لعصر التنوير) فقد تخلى فريدريك الاعظم عن اويلر وغادر المانيا في العام ١٧٦٦ متوجهاً الى سانت بطرسبيرغ ليتم تعيينه ثانية في اكاديميتها بناءَ على امر التعيين الذي اصدرته امبراطورة روسيا كاترين العظيمة اذ اصبح اويلر الشخصية الرئيسة في الاكاديمية الروسية

التي نشر فيها ٤٠٠ بحث ضمت ثلاثة مجلدات عن حركة القمر ورسائله العلمية الشهيرة التي سميت بـ (اميرة المانيا) وهي الرسائل التي شكلت واحداً من اشهر ما كتبه اويلر وقادت الى شيوع شهرته العلمية بين الناس.

٣-الموديل الاقتصادي للقيصرية الروسية:

البداية والنهاية عدت روسيا من وجهة النظر الغربية بأنها الجزء النامي من القارة الأوروبية، الامر الذي دفع قيصر روسيا بطرس الأعظم اثناء حكمه (١٦٨٢ - ١٧٢٥)، بذل ما بوسعه لجعل روسيا واحدة من القوى الغربية الحديثة، إذ قام ببناء الميناء الجديد لمدينة سانت بطرسبرغ وشيد العديد من المشاغل ذات الصفة الصناعية، ولكنها كانت لتصنيع البارود واسلحة الحرب ومستلزماتها. كما دفعت فكرة التحديث وبناء الدولة العصرية قيصر روسيا الكسندر الثاني بالعمل على ترسيخ الاصلاح الاقتصادي والاجتماعي التي ابتدأها بالقضاء على العبودية في تلك البلاد، حيث كان الاصلاحيون يأملون بأخذ المبادأة في التنمية الاقتصادية واطلاق النمو الاقتصادي من خلال تحرير سوق العمل والملكية الخاصة.ولكن لم تفلح هذه الخطوات باستجابة سريعة للنمو، الامر الذي دفع القيصرية الروسية الى تبني ماسمي بـ"الأنموذج القياسي للتنمية" الذي تضمن اولاً، خلق السوق الوطنية من خلال برنامج واسع لربط البلاد بالسكك الحديدية، ففي العام ١٩١٣ كان هناك نحو ٧١ الف كيلومتر من القضبان الممتدة من سكك الحديد، الامر الذي ربط روسيا بالعالم الخارجي. كما تمكن الفلاحون الروس في العام ١٩٠٣ في مدينة نيكولايف ومن خلال الربط الهاتفي (التلغراف) من التعرف على سبيل المثال على آخر سعر للبوشل الواحد من الحنطة بالسنت الاميركي في سوق شيكاغو، ليتاح لهم مقارنة ذلك بالعملة الروسية (الكوبيكس) لكل (بود) وهو الوزن المقابل المعتمد للحنطة في روسيا وقت ذاك، وقد استخدمت التعرفة الجمركية كوسيلة حماية للصناعة الروسية بوجه زخم الاستيرادات الاجنبية. ويلحظ في العام ١٩١٠ ان روسيا تمكنت من صهر(٤) ملايين طن حديد، واصبحت الدولة الثانية بعد الولايات المتحدة في هذا الحقل، تلتها المانيا وبريطانيا، فضلاً عن تطورها في مجال الصناعات الهندسية وازدهار صناعة النسيج فيها، حيث جرت حماية المنسوجات الروسية بالتعرفة الجمركية المرتفعة جداً ورافق ذلك توسع هائل في زراعة

القطن، الامر الذي اطلق عليها اوزبكستان الاخرى. وفي مطلع القرن العشرين اصبح القطن المعد في روسيا يوازي مثيله في المانيا. والامر الآخر هو الاهتمام القوي بـ "الانموذج القياسي للتنمية" لتحديث المناخ المالي الروسي. الا ان روسيا اصطدمت بمصارف اهلية كانت في غاية الضعف والوهن ولم تؤدِ دورها الفاعل في التنمية على غرار ما قامت به المصارف البلجيكية والالمانية. وعلى خلاف ذلك، اضطرت القيصرية الروسية الى الاعتماد على رأس المال الاجنبي والتمويل الخارجي، فجرى تمويل سكك حديد روسيا عن طريق الاقتراض بالسندات الروسية التي تم ترويجها في الاسواق العالمية آنذاك، كما صار الاستثمار الاجنبي الوسيلة الرئيسة في تدفق التكنولوجيا الصناعية الغربية الحديثة الى تلك البلاد. واللافت، ان المصانع التي شيدت قد جاء معظمها وفق الرؤى الغربية ولم تأخذ بالاعتبار ظروف البلاد الداخلية. كما اعتمد "الانموذج القياسي" التوسع بالتعليم، فعند قيام الحرب العالمية الاولى، كان نصف البالغين هم ممن يقرأ ويكتب، وان الاجور كانت تدفع على اساس التحصيل الدراسي في مصانع البلاد، ما جعل المدارس تجلب الكثير من البالغين الى رحابها طمعاً بالاجر. وعلى الرغم من ذلك، لم تحتل الصناعة الثقيلة سوى نسبة 8 بالمئة من الناتج المحلي الاجمالي الروسي في العام ١٩١٣ مرتفعة من نسبة قدرها ٢ بالمئة في العام ١٨٨٥ . كما ظلت الزراعة تستحوذ مابين ٥١ بالمئة الى ٥٩ بالمئة من ذلك الناتج خلال المدة بين العام ١٨٨٥ والعام ١٩١٣، حين ازدهرت اسعار الحنطة في العالم، وامست روسيا قوة اقتصادية زراعية وليست صناعية بالضرورة.ان النمو الاقتصادي وازدهاره في روسيا القيصرية جاء معظمه من نمو وازدهار القطاع الزراعي الذي تزامن مع سياسة تصنيعية محمية بالتعرفة الجمركية العالية على البضائع المستوردة، ولكن المشكلة التي واجهها "الانموذج القياسي للتنمية"، هو ارتهان النمو الذي مصدره الزراعة بالظاهرة الريعية لاسيما اسعار الحنطة الروسية المصدرة الى الاسوق العالمية، فعندما انهارت اسعار الحنطة بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى، والبلاد غارقة في الديون الخارجية، اصبحت روسيا بحاجة الى انموذج اقتصادي آخر للنمو كي تتمكن من ان تلاحق النمو الاقتصادي في العالم الغربي..

٤-الثورة البلشفية وموديلها الاقتصادي البديل.

يبقى السؤال المحير هو: لماذا اندلعت الثورة البلشفية ؟وهنا يأتي الجواب المباشر هو ان اخفاق "الانموذج القياسي للتنمية" وفشله تطبيقياً كان سبب اندلاع الثورة البلشفية الروسية، فمحدودية مؤشرات الانموذج القياسي المذكور للتنمية جسدته سوق العمل، إذ ظلت سوق العمل تعاني من الركود والبطالة على الرغم من النمو في الناتج المحلي الاجمالي في البلاد، ولم ترتفع معدلات الاستخدام فيها، كما ان البطالة هي الصفة السائدة لتلك السوق ولم يستوعب النمو اعداد العاطلين فيها، وبهذا استمرت اجور العمال عند مستوى الكفاف وتردى مستوى المعيشة، لأن اية زيادة في الناتج المحلي الاجمالي كانت تصب بلا ريب في تراكم ارباح المالكين الصناعين او ملاك الاراضي الكبار. وهكذا عد الصراع بين تحالف القوى الاجرية والفلاحين من جهة والقوى المستحوذة على فائض الريع الزراعي والارباح الصناعية من جهة أُخرى، البؤرة التي فجرت الصراع الاجتماعي الاقتصادي الروسي، فالتنمية غير المتساوية والفوارق الطبقية هي التي قادت الى ثورة سنة 1905 التي انتهت بثورة اكتوبر في العام 1917. وانتهت روسيا القيصرية بفشل او قصور أنموذجها القياسي الانمائي في تحويل روسيا الى دولة صناعية على الطراز الغربي وانتهت القيصرية الروسية وانهزمت على يد الثوار البلاشفة، وارتفعت الراية الحمراء على قباب الكرملين لتحل محل الراية القديمة التي كانت رمزاً للإمبراطورية الزراعية الضعيفة صناعياً!.

٥- ختاماً، لم يبق امام الثوار البلاشفة الجدد سوى استبدال انموذج روسيا الاقتصادي القديم للتنمية الذي قاد الى الفشل الاقتصادي للقيصرية ونجاح ثورتهم، بموديل جديد آخر ليكون هذه المرة انموذج في التنمية الاقتصادية هو اقرب الى ما يسمى اليوم بانموذج الدفعة القوية Big push model شريطة ان تسيره الملكية العامة لوسائل الإنتاج.

(*) باحث وكاتب اكاديمي، مستشار رئيس الوزراء العراقي في الشؤون المالية

حقوق النشر محفوظة لشبكة الاقتصاديين العراقيين. يسمح بأعادة النشر بشرط الإشارة الى المصدر 27 شباط 2022

Iraqi Economists Network – شبكة الاقتصاديين العراقيين